

كِفَاحُ طَيِّبَةٍ

١

كفاح طيبة

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

سيكنرع

- ١ -

كانت السفينة تصعد فى النهر المقدس ، ويشق مقدمها المتوج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليدة ، يحث بعضها بعضا منذ القدم كأنها أحداثات الدهر فى قافلة الزمان ، بين شاطئين انتشرت على أديمهما القرى ، وانطلق النخل جماعات ووحدانا ، وترامت الخضرة شرقا وغربا ، وكانت الشمس تعتلى كبد السماء ترسل أسلاكها من النور إذا غمر النبات رف رفيفا ، وإذا مس الماء تالألأ لألاء ، وقد خلا سطح الماء إلا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس رمز الشمال بعين التساؤل والإنكار .

وكان يتصدر المقصورة رجل بدين قصير القامة ، مستدير الوجه ، طويل اللحية ، أبيض البشرة ، يرتدى معطفافضفاضا ويقبض بيمناه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبى ، جلس بين يديه رجلان فى مثل بدانتة وزيه ، تدانى بينهم جميعا روح

واحدة، وكان السيد يطيل النظر إلى الجنوب بعينين مظلمتين
أضناهما الملل والتعب ويلقى على من يصادفه من الصيادين نظرة
شرزاء . وكأنه برم بالصمت فتحول إلى رجلية وتساءل قائلاً :

- ترى هل ينفخ غدا فى الصور فيتبدد هذا السلام الثقيل المخيم
على ربوع الجنوب ، وتفزع هذه الدور المطمثنة ، ويحلق نسر
الحرب فى هذا الجو الآمن؟ . . . آه . . . ليت هؤلاء الرجال يعلمون
أى نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم .

فهز الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال أحدهما :

- لتكن حرب أيها الحاجب الأكبر ، ما دام هذا الرجل الذى
ارتضاه مولانا حاكما على الجنوب يأبى إلا أن يضع على رأسه
تاجا كالمملوك وبنى القصور كالفراعين ، ويسير فى طيبة مرحا
لا يبالي شيئا .

فجعل الحاجب يصرف بأنياه ، وعبث بعصاه فيما بين قدميه
بحركة تدل على الحنق والغیظ وقال :

- لا يوجد حاكم مصرى سوى حاكم إقليم طيبة هذا ، فإذا
تخلصنا منه خلص لنا حكم مصر إلى الأبد ، وبات مولانا الملك
على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه .

قال ثانى الرجلين بحماس ، وكان لا يئس أبدا من أن يصير
يوما حاكما لمدينة عظيمة :

- إن هؤلاء المصريين يكرهونا .

فأمن الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة :

- نعم . . نعم . . وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك
يظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية . . لقد نفذت الحيل ولا حيلة
الآن سوى السوط والسيف .

فابتسم الرجلان أول مرة، وقال ثانيهما أيضا :

- بورك رأيك أيها الحاجب الحكيم، فإن السوط وسيلة التفاهم
التي لا تجدى سواها مع المصريين .

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة، فما يسمع إلا وقع
المجاديف على سطح الماء، ثم لاحت من أحدهم التفاتة إلى زورق
صيد يقف في وسطه فتى مفتول الساعدين، عارى الجسد إلا من
وزرة تغطي وسطه، وقد لفحت الشمس بشرته، فقال بتعجب :

- كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم .

فقال الحاجب بسخرية :

- لا تعجب فإن من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون .

- حقا . . إن لونهم ولوننا كالطين والشعاع السنى .

قال الحاجب :

- حدثني بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقال : إنهم على
لونهم وغريهم ذوو صلف وكبرياء، وإنهم يزعمون أنهم
منحدرون من أصلاب الآلهة، وإن بلادهم منبت الفراعنة
الحقيقيين . . رباه . . إنى أعرف الدواء لكل هذا . . لا ينقص
إلا أن تمتد ذراعنا إلى حدود بلادهم .

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول،
وهو يشير بأصبعه إلى الشرق:

- انظر . . أترى طيبة؟ . . هذه طيبة!

فنظروا جميعا إلى حيث يشير الرجل، فأوا مدينة كبيرة يحيط
بها سور عظيم، بدت خلفه رءوس المسلات عالية كأنها عمد ترفع
القبة السماوية، ورئيت في ناحيتها الشمالية جدران معبد آمون
الشاهقة، رب الجنوب المعبود. فما وقعت العين فيها إلا على ما
رد عظيم يتعالى إلى السماء، فأخذ الرجال، وقطب الحاجب
الأكبر وتمتم قائلا:

- نعم . . هذه طيبة . . وقد أتحت لى رؤيتها من قبل . وما
ازداد على الأيام إلا رغبة فى أن تعنو الهام لمولانا الملك، وأن أرى
موكبه الظافر يشق شوارعها .

فقال أحد الرجلين:

- وأن يعبد بها ربنا ست المعبود .

وخفت السفينة من سرعتها، ومضت تدنو من الشاطئ
رويدا رويدا مجتازة الحدائق الغن، التى تنحدر مدرجاتها
المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس . وقد لاحت وراءها
قصور طيبة الشم، وأما غربى الشاطئ الآخر، فتجثم مدينة
الأبدية، حيث يرقد الخالدون فى الأهرام والمصاطب والمقابر،
تغشاهم جميعا وحشة الموت .

وتوجهت السفينة إلى ميناء طيبة، تشق سبيلها بين زوارق

الصيد والسفن التجارية، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها، وصورة اللوتس التي تزين مقدمها، حتى حاذت الرصيف، فألقت كلابها الضخم، وقصد إليها بعض الحراس، وانتقل إليها ضابط يرتدى فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض. وسأل أحد رجالها قائلاً:

- من أين انحدرت هذه السفينة؟ . . وهل تحملون تجارة؟

فحياه الرجل، وقال «اتبعني» واصطحبه إلى المقصورة، حيث أدرك الضابط أنه ماثل بين يدي حاجب كبير من حجاب قصر الشمال، قصر ملك الرعاة كما يدعونه في الجنوب، فانحنى احتراماً وأدى التحية العسكرية. ورفع الحاجب يده ليرد التحية في صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية:

- أنا رسول فرعون، ملك الشمال والجنوب، ابن الرب ست، مولانا أبو فيس، إلى حاكم طيبة الأمير سيكنرع لأؤدى إليه ما حملته من البلاغ.

وأصغى الضابط إلى الرسول في انتباه ثم أدى التحية مرة أخرى ومضى.

- ٢ -

ومضت ساعة من الزمان، ثم جاء السفينة رجل وقور، يميل إلى القصر، بادي النحافة، بارز الجبهة، فانحنى انحناء وقور للرسول، وقال بصوت هادىء النبرات:

- إن الذى يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب .

فحنى الرجل رأسه الفخم وقال بصوته الغليظ :

- وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعونى .

فقال حور :

- يسر مولاي أن يستقبلك فى الحال .

فأبدى الرسول حركة وقال : «هلم بنا» . وتقدمه الحاجب حور وتبعه الرجل يسير فى خطا وثيدة ، متوكئا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان إجلالا ، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحنق : «أما كان ينبغى ليسكننرع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبو فيس . . ؟» . وضايقه جد المضايقة أن يسلك الرجل فى استقباله سلوك الملوك . وغادر السفينة بين صفين من الجند والضابط ، ورأى خيان على الشاطيء ركبا ملكيا فى انتظاره تتقدمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخرى ، وأدى له الجند التحية ، فردها بكبرياء ، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور ، ثم تحرك الموكب الصغير فى طريقه إلى قصر حاكم الجنوب ، وتحركت عينا خيان فى محجريهما ذات اليمين وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلات والتمثيل والسبل والقصور والأسواق وتيارات القوم التى لا تنقطع من جميع الطبقات : فالعامّة بأجسامهم شبه العارية ، والضباط بمعاطفهم الأنيقة ، والكهنة بأثوابهم الطويلة ، والسراة بعباءاتهم الفضفاضة ، والنساء بأزيائهن

الجميلة، فكأن كل شيء يشهد لعظمة المدينة، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبو فيس . وأدرك الرسول أول وهلة أن موكبه يلفت الأنظار بقوة وأن الناس تتجمع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن فى برود وجمود، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض، فشعر بثورة باطنية وغضب شديد لذلك الاستقبال البارد الذى منى به أبو فيس العظيم فى شخص رسوله، وساءه أن يبدو غريبا فى طيبة بعد انقضاء مائتى عام على هبوط قومه أرض مصر وتربعهم على عرش ملكها . . وغازه وأحنقه أن يحكم قومه مائتى عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس .

ثم بلغ الموكب ميدان القصر، وكان ميدانا فسيحا مترامى الأركان، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقر القيادة العليا للجيش، ويبدو فى مكانه الوسيط القصر الجليل يبهز الأنظار مشهده الرائع؛ كان قصرا عظيما كقصر منف نفسه، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره، ويصطفون صفين لدى بابه الكبير، فلما اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى بنشيد التحية، وفيما كان الموكب يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلا: هل يستقبلنى سيكننرع وعلى رأسه التاج الأبيض؟ .

إنه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم، ويتخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم، فهل يلبس تاج الجنوب أمامى؟ . هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سيكننرع؟ . . وترجل

الرسول عند مدخل ممر الأعمدة الطويل ، ووجد في استقباله حجاب القصر ورئيس الحرس الفرعوني وكبار الضباط ، فأدوا له التحية جميعا ، وساروا بين يديه إلى بهو الاستقبال الفرعوني ، وكانت الردهة المؤدية إلى باب البهو مزينة الجانبين بتمثال أبي الهول ، وفي أركانها يقف ضباط عمالقة من رجال هابو الأشداء . وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له ، فتقدمه الحاجب حور إلى داخل البهو وتبعه الرجل ، ورأى في صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشا فرعونيا يجلس عليه رجل متوج بتاج الجنوب ويده الصولجان والعصا المعقوفة ، وإلى يمين عرشه يجلس رجلان وإلى شماله رجلان . وبلغ حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه بإجلال ، وقال بصوته الرقيق :

- مولاي ، أقدم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبو فيس .

وانحنى عند ذلك الرسول تحية ، فرد الملك تحيته وأشار إليه فجلس على كرسي أمام العرش ، أما حور فقد وقف إلى يمين العرش . وأراد الملك أن يقدم إلى الرسول رجال مملكته فأوماً بصولجانه إلى الرجل الذي يلي يمينه وقال : «أوسر آمون رئيس الوزراء» . ثم أشار إلى الذي يليه وقال : «نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون» ، ثم تحول إلى شماله وأوماً إلى من يليه قائلاً : «كاف قائد الأسطول» وأشار إلى من يليه قائلاً : «بيبي قائد الجيش» . ولما تم التعارف وجه الملك بصره إلى الرسول وقال بصوت تدل نبراته على السمو والرفعة الطبيعيتين :

- نزلت منزلا يرحب بشخصك وبمن أولاك ثقته .

فقال الرسول :

- حفظك الرب أيها الحاكم الجليل ، وإنى سعيد باختيارى لمهمة
السفارة فى بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخية .

ولم يغب عن سمع الملك قوله : «الحاكم الجليل» ، ولا فاته
مغزاها ، ولكن لم يبد على وجهه أى أثر لما اضطرب فى نفسه ،
وكان خيان فى تلك اللحظة يلقي عليه نظرة سريعة فاحصة من
عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصرى رجلا مهيبا حقا ، طويل
القامة ، مستطيل الوجه جميله ، شديد السمرة ، يميز ملامحه برون
فى أسنانه العليا ، وقد قدر له الحلقة الرابعة عمرا . وكان الملك
يظن أن رسول أبو فيس جاء لما كانت تجيء به بعثات الشمال من
أجله ، أى طلب الأحجار والحبوب ، وهو ما كان يعتبره ملوك
الرعاة جزية ، ورآه ملوك طيبة رشوة يكفون بها شر الغزاة ، فقال
الملك بهدوئه وجلاله :

- يسرنى أن أستمع إليك يا رسول أبو فيس العظيم .

فاعتدل الرسول فى جلسته كأنما يتوثب للنضال وقال بصوته
الغليظ :

- منذ مائتى عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب ،
وفى كل مرة تعود راضية .

فقال الملك :

- أرجو أن تدوم هذه السنة الجميلة .

فقال خيان :

- أيها الحاكم إننى أحمل إليك ثلاث رغبات فرعونية : تتعلق الأولى بشخص مولاي فرعون ، والثانية بربه المعبود ست ، والثالثة بروابط المودة بين الشمال والجنوب .

فألقي إليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام .
فاستدرك الرجل قائلاً :

- شكوا مولاي الملك فى الأيام الأخيرة آلاما مروعة تهز أعصابه فى الليل ، وأصواتا منكرة تصك أذنيه الكريمتين مما أوقعه فريسة للسهاد والضنى ، وقد دعا إليه أطباءه وقص عليهم ما يلقي بليله فتفحصوه بعناية ، ولكنهم عادوا جميعا من فحصه بالحيرة والجهل ، وكان الملك فى رأيهم جميعا سليما معافى . ولما يئس مولاي فرغ إلى نبي معبد ست ، فأدرك الحكيم داءه ، وقال له : إن مبعث آلامه جميعا أن خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرب إلى قلبه ، وأكد له ألا شفاء له إلا بقتلها .

وكان الرسول يعلم أن الأفراس الحبيسة فى بركة طيبة مقدسة ، فاختلس نظرة إلى وجه الحاكم ليبلو أثر كلامه ، ولكنه وجدته جامدا صلبا وإن تضرج بالاحمرار ، وانتظر أن يعلق الرجل على كلامه ، ولكنه لم ينبس بكلمة وبدا عليه الإصغاء والانتظار ، فقال الرسول :

- وفى أثناء مرض مولاي رأى فيما يرى النائم ربنا المعبود ست

يزوره بجلاله ونورانيته، وعقب عليه قائلاً: أيجوز أن يخلو الجنوب كله من معبد يذكر فيه اسمي؟ . . فأقسم مولاي أن يطلب إلى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد في طيبة معبدا لست إلى جانب معبد آمون .

وسكت الرسول ولكن سيكننرغ ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرة أنه أخذ على غره، وأنه فوجيء بما لم يدر له فى خلد، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعله كان مدفوعا برغبة فى إثارته، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب . فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلاً: «الأفضل ألا يناقش مولاي الرسول الآن». فهز الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمى إليه حاجبه، وظن خيان أن الحاجب يفضى إلى مولاه بما يقوله فانظر قليلا، ولكن الملك قال:

- أعندك بلاغ آخر تفضى به؟

فقال خيان:

- أيها الحاكم الجليل، لقد بلغ مولاي أنك تتوج رأسك بتاج مصر الأبيض، فراعته ذلك، ورأى أنه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية .

فقال سيكننرغ بدهشة:

- ولكن التاج الأبيض غطاء الرأس لحكام الجنوب .

فقال الرسول بيقين وإصرار:

- بل كان تاج الملوك منهم ، ولذلك لم يفكر والدك المجيد فى لبسه ، لأنه يعلم أنه لا يوجد سوى ملك واحد فى هذا الوادى يحق له التتويج ، وأرجو أيها الحاكم الجليل ألا يغيب عنك ما تدل عليه ملاحظة مولاي من رغبة صادقة فى توثيق الأواصر الطيبة بين أسرتى منف وطيبة .

وسكت خيان ، فساد الصمت مرة أخرى ، وكان سيكننرع غارقا فى تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التى تهاجم مواطن الإيمان من قلبه وموضع العزة من نفسه ، وبدا أثر ذلك فى امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته . وكان يقدر نصيحة حور فلم يرتجل جوابا وقال بصوت احتفظ بالرغم من كل شىء بهدوئه .

- أيها الرسول إن رسالتك تنطوى على خطب خطير يمس عقيدتنا وتقاليدنا ، لذلك أرى أن أكاشفك برأى فيها غدا .

فقال خيان :

- خير رأى ما سبقته المشورة .

فالتفت سيكننرع إلى الحاجب حور وقال :

- تقدم الرسول إلى الجناح المعد له .

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم ، وانحنى تحية ، ثم ذهب يسير فى خيلاء وعظمة .

وأرسل الملك فى طلب ولى عهده الأمير كاموس ، وجاء الأمير على عجل دل على رغبته فى معرفة رسالة حاجب أبو فيس . وحيا الملك فى إجلال واتخذ مكانه إلى يمينه ، والتفت إليه الملك وقال :

- لقد أرسلت فى طلبك أيها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال ، لترى فيه معنا رأيك ، وإن الأمر لجد خطير فأصغ إلى .

ثم روى الملك لولى عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبين ، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد بدا على محياه الحسن الذى يشبه أباه فى لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا ، ثم أدار الملك عينيه فى الحاضرين ، وقال :

- فهأ أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكى نرضى أبو فيس ينبغى أن نخلع هذا التاج ، ونذبح أفراس البحر المقدسة ، ونشيد معبدا لست يعبد فيه إلى جانب معبد آمون ، فأشيروا على بما يجب عمله .

وكان الاستياء البادى على وجوههم جميعا يدل على ما يعتلج فى صدورهم من الهم ، وكان الحاجب حور أول المتكلمين ، فقال :

- مولاي ، إن الذى أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذى أملاها ، فهو روح سيد يملى على عبده ، وملك يتجنى على شعبه ، وما أراها إلا صورة متجددة لذلك النزاع القديم بين

طيبة ومنف، هذه تسعى لاستعباد تلك، وتلك تتشبث باستقلالها ما وسعتها الحيلة، وما من شك في أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظل مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكامهم، ولعلمهم لا يقنعون بما يدعون من أن هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم، فأرادوا أن يبطلوا مظاهر استقلالها، ويتحكموا في عقيدتها، فيسهل عليهم بعد ذلك تدميرها .

وكان حور في إلقائه قويا صريحا، فذكر الملك تاريخ تحرش ملوك الرعاة بحكام طيبة، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرهم بالرد الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكي يحفظوا الجنوب من توغلبهم وشرهم، وكان لأسرته في هذا السبيل فضل وأي فضل، حتى استطاع والده سينكنرع أن يدرّب قوات عظيمة سرا ليصون بها استقلال مملكته، إذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء في صوته . . ثم قال القائد كاف :

- مولاي . . أرى أنه لا يجوز التسليم بأي مطلب من هذه المطالب . . كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه؟ . . كيف نقتل الأفراس المقدسة إرضاء لعدو أذل قومنا! . . وكيف نشيد معبدا لرب الشر الذي يعبده أولئك الرعاة؟

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون :

- مولاي . . إن الرب آمون لا يرضى أن يشيد إلى جانب معبده معبد لإله الشر ست، ولا أن ترتوى أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدسة، ولا أن ينزل حامى مملكته عن تاجه وهو أول حاكم

للجنوب توج به رأسه بأمره . . كلاً يا مولاي إن آمون لا يرضى
بذلك أبداً، وإنه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه
لتحرير الشمال، وتحقيق وحدة الوطن، فيعود كما كان في عهود
الملوك السالفين .

فجرى الحماس في عروق القائد بيبي مجرى الدماء، ووقف
بقامته الفارعة ومنكببه العريضين، ثم قال بصوته الجهورى :

- مولاي؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا، وإنى لعلى يقين من
أنه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذل
والخضوع . وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الهمجى الهابط
وأدينا من أقاصى الصحارى الماحلة إلى مليكنا أن يخلع تاجه
ويعبد رب الشر ويذبح الأفراس المقدسة؟ . . لقد كان الرعاة فيما
مضى يطلبون أموالاً فلم نبخل عليهم بأموالنا . أما الآن فإنهم
يطمعون فى حريتنا وشرفنا، ودون ذلك يهون علينا الموت
ويطيب، إن قومنا فى الشمال عبيد يحرقون الأرض ويحترقون
بأسنة السياط، ونحن نرجو أن نخلصهم يوماً مما يعانون من
عذاب لا أن نمضى بإرادتنا إلى مثل مصيرهم التاعس .

لازم الملك الصمت، وكان يصغى باهتمام ويكتم عواطفه
بالنظر إلى أسفل . وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم
يتمكن، وكانت ميوله مع القائد بيبي فقال بعنف :

- مولاي . . إن أبو فيس ينظر بجشع إلى عزتنا القومية، ويأبى
إلا أن يذل الجنوب كما أذل الشمال، ولكن الجنوب الذى لم

يرض المذلة وعدوه فى أوج قوته لن يرضاها الآن . . فمن يقول
إننا نفرط فيما أشتد أسلافنا فى صونه ورعايته؟

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم إلى الاعتدال ،
وكانت سياسته موجهة دائما إلى تفادى غضب الرعاة أو التعرض
لقواتهم الهمجية لكى يتفرغ إلى إنماء ثروة الجنوب واستثمار موارد
النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قوى لا يغلب ، وقد
خشى مغبة اندفاع ولى العهد وقائد الجيش ، فقال موجهها كلامه
إلى رجال المملكة :

- اذكروا يا سادة أن الرعاة قوم نهب وسلب . ولئن حكموا
مصر مائتى عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب ، ويستذل
نفوسهم ويشغل همهم عن شريف المقاصد .

فهز القائد بببى رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال :

- يا صاحب العظمة ، لقد عاصرنا القوم عهدا كافيا لنعرف
نفوسهم ، فهم أناس إذا رغبوا فى شىء طلبوه بلسان صريح دون
التوسط إليه بالحيلة والمداراة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل
إليهم ، أما اليوم فهم يطلبون حريتنا .

فقال الوزير :

- ينبغى التريث الآن حتى يكمل جيشنا .

فقال القائد :

- إن جيشنا بحالته الراهنة قادر على صد العدو .

ونظر الأمير كاموس إلى أبيه فوجده ما يزال يطرق إلى أسفل
فقال بحماس :

- ما جدوى الكلام؟ . . قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض
المعدات ، ولكن أبو فيس لا ينتظر حتى تستكمل عدتنا ، وهو
يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهيار
والزوال ، وليس فى الجنوب رجل واحد يفضل التسليم على
الموت ، فلنرفض هذه المطالب بإباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك
الرعاة ذوى اللحي المسترسلة والبشرة البيضاء التى لن تطهرها
الشمس .

وتأثر القوم بحماس الأمير الشاب ، وبدا على وجوههم التحفز
والغضب وكأنا سئموا الكلام ورغبوا فى اتخاذ قرار حاسم ،
ورفع الملك رأسه ورنأ إلى ولى عهده ، وسأل بلهجته الجلييلة
السامية قائلاً :

- أترى أن نرفض مطالب أبو فيس أيها الأمير؟

فقال كاموس بثقة وعنف :

- بكل حزم وإباء يا مولاي .

- وإذا جر الرفض إلى الحرب؟

فقال كاموس :

- نحارب يا مولاي . . »

وقال القائد يبيى بحماس لا يقل عن حماس الأمير :

- نحارب حتى نصد العدو عن حدودنا، وإذا شاء مولانا حاربنا حتى نحرر الشمال ونجلى على أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوى اللحي الطويلة القذرة .

فالتفت الملك إلى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله :

- وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى؟

فقال الشيخ الوقور :

- أرى يا مولاي أن من يحاول إطفاء هذه الجذوة المقدسة كافر .

فابتسم الملك سيكنرع راضيا وتحول إلى وزيره أوسر آمون

قائلا :

- ولم يبق إلا أنت أيها الوزير .

فبادر الرجل يقول :

- مولاي ، لم أنصح بالتريث كراهية في الحرب أو خوفا منها ، ولكن لنستكمل الجيش الذى أرجو أن يحقق غاية أسرة مولاي المجيدة ، وهى تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة الحديدية ، وأما إذا كان أبو فيس يطمع حقا فى حريتنا فأنا أول من يدعو إلى الحرب .

فنظر سيكنرع فى وجوه رجاله ، وقال بصوت دل على العزم

والقوة :

- يا رجال الجنوب إنى أشرككم فى عواطفكم ، وأعتقد أن

أبو فيس يتحرش بنا ويطمع فى أن يحكمنا بالخوف أو بالحرب ،

ونحن قوم لا ندعن للخوف ونرحب بالحرب . إن الشمال فريسة
الرعاة منذ مائتي عام، امتصوا خير أرضه وأذلوا رجاله . أما
الجنوب فإنه يكافح منذ مائتي عام غير غافل عن غايته العليا وهي
تحرير الوادى جميعه، فهل ينكص على عقبه لأول تهديد،
ويفرط في حقه، ويلقى بحريته وديعة بين يدي الطامع النهم؟ . .
كلا يا رجال الجنوب، سأرفض مطالب أبو فيس المهينة، وأنتظر ما
يرد به علينا إن سلما فسلم وإن حربا فحرب .

وقام الملك واقفا، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا إجلالا،
ثم غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر .

- ٤ -

وتوجه الملك إلى جناح الملكة أحو تبي، وأدركت المرأة حين
رأته يقبل عليها في لباسه الرسمي أن رسول الشمال جاء بأمر
جلل، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة
تلقيه بقامتها الطويلة الرشيقة، ورفعت إليه عينين متسائلتين فقال
لها بهدوء:

- أحو تبي . . يبدو لي أن الحرب تطبق علينا مع الأفق .

فقلقت عيناها السوداء وان وتمتمت هائلة بدهشة:

- أتقول الحرب يا مولاي؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، وقص عليها ما قال الرسول

خيان، ورأى رجاله فيه، وما استقر عليه عزمه، وكان يحدثها وعينه لا تتحولان عن وجهها فقرأ فى صفحته ما اضطرم فى نفسها من الإشفاق والأمل والاستسلام.

وقالت له :

- لقد اخترت السبيل التى ينبغى لمثلك أن يختارها .

فابتسم وربت كتفها، ثم قال لها :

- هيا بنا إلى أمنا المقدسة .

ثم سارا معا جنبا إلى جنب إلى جناح الملكة الوالدة توتيشيرى زوج الملك السابق سينكنرع، وكانت فى حجرة خلوتها تطالع كعادتها .

كانت الملكة توتيشيرى فى الستين من عمرها تبدو على محياتها أى النبل والمجد والمهابة، وكانت «حيويتها» دفاقة فغلب نشاطها الكبر، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكلل فوديتها، وذبول خفيف يعلو خديها، وظلت عينها على صفائهما وجسمها على فتنته ورشاقته، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة فى بروز أسنانها العليا، ذلك البروز الذى افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافة، وقد تخلت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضى القانون، تاركة مقاليد طيبة لابنها وزوجه، ولكنها ظلت الرأى الذى يرجع إليه فى الملمات، والقلب الذى يلهم الأمل والكفاح، وقد أقبلت فى فراغها على القراءة، وكانت تديم المطالعة فى كتب خوفو وقامنا وكتب الموتى وتاريخ العهود

المجيدة التى خلدها أمثال مينا وخوفو وأمنحيت ، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة فى الجنوب جميعه ، فما من رجل أو امرأة إلا يعرفها ويحبها ويقسم باسمها المحبوب ، وذلك أنها بثت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكنرع وحفيدها كاموس حب مصر جنوبها وشمالها وكرامية الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام ، ولقنت الجميع أن غايتهم السامية التى يجب أن يعدوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة المستبدين ، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدرسى المدارس أن يذكروا الناس دائما بالشمال المغتصب والعدو الغاصب ، وما ارتكبه من آثام أذل بها القوم واستعبدهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتها وهبط بهم إلى مستوى البهائم التى تعمل فى الحقول ، فإذا كان فى الجنوب جذوة نار مقدسة تلهب القلوب وتحبى الآمال فالفضل فى إذكائها لوطنيتها وحكمتها ، ولذلك قدسها الجنوب جميعه ودعاها الناس الأم المقدسة توتيشيرى ، كما يدعو المؤمنون الربة إيزيس ، وعاذوا باسمها من شر اليأس والهزيمة .

هذه هى الأم التى قصدها سيكنرع وأحوتبى ، وكانت هى تتوقع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدم رسول ملك الرعاة ، وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة إلى زوجها الراحل فى طلب الذهب والغلل والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبع . . وكان زوجها يبعث بالسفن محملة ليتقى قوة القوم الهمجية ، ويضعف نشاطه الخفى فى تكوين الجيش

الذى كان أعز ما أورثه سيكنرع ابنه وخلفه . ذكرت ذلك وهى
تنتظر الملك فلما جاء وزوجه بسطت لهما ذراعيها النحيلتين فقبلا
يديها ، وجلس الملك إلى يمينها والملكة إلى شمالها ، فسألت ابنها
وهى تبسم ابتسامة رقيقة :

- ماذا يريد أبو فيس ؟

فقال بلهجة تنطوى على الخنق :

- يريد يا أماه طيبة وما عليها جميعا . بل ما هو أجل من هذا ،
إنه يساومنا هذه المرة على شرفنا .

فرددت رأسها بين الملكين وقد روعت وقالت بصوت احتفظ
بهدهوته على الرغم من كل شىء :

- كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب .

فقالت الملكة أحو تبنى :

- أما هو يا أماه فإنه يريد منا أن نقتل أفراس البحر التى يقلق
صوتها رقاده ، وأن نشيد معبدا لربه ست إلى جانب معبد آمون ،
وأن يخلع مولانا التاج الأبيض .

ووافق سيكنرع على قول أحو تبنى ، وقص على أمه نبأ الرسول
ورسالته .

فبدا الإنكار على وجهها الجليل ، ودل التواء شفيتها على
الامتعاض والسخط وسألت الملك قائلة :

- وبماذا أجبتة يا بنى ؟

- لم أبلغه جوابي بعد .

- وهل انتهيت إلى رأى؟

- نعم . . أن أنبذ مطالبه جميعا .

- إن من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها!

- ومن يقدر على رفضها جميعا لا يخشى عواقب رفضه .

- فإذا شهر عليك حربا؟

- شننت عليه حربا بحرب .

ورنت الحرب فى أذنيها رنينا عجيبا أيقظ بقلبها ذكريات
قديمة ، وذكرت أياما مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره
ويشكو إليها بثه وهمه ويتمنى لو كان يملك جيشا قويا يدفع به
طمع عدوه ، أما ابنها فيتكلم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة ،
فقد تغير الزمن وتجدد الأمل ، واختلست من وجه الملكة نظرة
فوجدته شاحبا ، فأدركت أنها تكابد حيرة وأن أمل الملكة
وإشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة . . وهى نفسها ملكة وأم
ولكنها لا تستطيع أن تقول إلا ما ينبغى لمعلمة القوم وأمهم
المقدسة أن تقوله . وقد سألته :

- وهل تقدر على الحرب يا مولاي؟

فقال بثبات :

- نعم يا أماه . . لدى جيش باسل .

- هل يستطيع هذا الجيش أن يخلص مصر من الأغلal؟
- يستطيع على الأقل أن يصد عن مملكة الجنوب عدوان
الرعاة . . ثم هز منكبيه استهانة وقال بحنق وغيظ :
- أماه طالما دارينا أولئك الرعاة عاما بعد عام فلم تفلح المداراة
فى إسكات جشعهم ، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع
والجشع ، وقد حم القضاء وأرى أن الشجاعة أولى بنا من المطاولة
والمداراة . سأخطو هذه الخطوة وأنظر ما بعدها .
فابتسمت توتيشيرى وقالت بفخار :
- فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية .
- فماذا تقولين يا أماه؟

- أقول يا بنى : سر فى طريقك يرداك الرب وتباركك دعواتى ،
هذه غايتنا وهذا ما ينبغى للفتى الذى اختاره آمون ليحقق آمال
طيبة الخالدة .

وابتهج سيكنزع وتألق بالنور وجهه ، وهوى على رأس
توتيشيرى يقبل جبينها ، وقبلت خده الأيسر ، وقبلت خد أحوتى
الأيمن وباركتهما معا ، فعادا من لدنها سعيدين مغتبطين .

- ٥ -

وأعلن الرسول خيان أن سيكنزع سيستقبله غداة غد ، وفى
الموعد المحدد ذهب الملك إلى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجابيه ،

وهناك وجد فى انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدى الجيش والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه ، وجلس على العرش وأذن لهم فى الجلوس ، ثم صاح حاجب الباب معلنا وصول الرسول خيان ، ودخل الرجل بجسمه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشى مشية الخيلاء ، وكان يسائل نفسه : ترى ماذا وراء الشورى؟ . . أسلام أم حرب؟ . . ثم بلغ العرش فانحنى تحية للجالس عليه ، ورد عليه الملك التحية وأذن له فى الجلوس وهو يقول :

- عسى أن تكون قضيت ليلة سعيدة .

- كانت ليلة سعيدة ، شكرا الضيافتك الكريمة .

ولاحت منه التفاتة إلى رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه ، فانقبض صدره واحتدم الغيظ فى قلبه ، وكبر عليه أن يتحداه كذلك حاكم الجنوب ، وكان الملك لا يحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنه كان لا يجهل ما يعنيه رفضه للمطالب ، فأراد أن يقول رأيه صريحا حازما قاسيا فقال :

- أيها الرسول خيان : لقد درست المطالب التى تحملها إلينا بعناية ، وشاورت فيها رجال مملكتى ، فاتفق رأينا جميعا على رفضها .

ولم يكن خيان يتوقع هذا الرفض الصريح الحاسم ، فأخذ واستولى عليه الذهول ، ونظر إلى سيكننوع باستغراب وإنكار وقد صار وجهه كالجمان ، واستدرك الملك قائلا :

- لقد وجدت هذه المطالب تمس عقيدتنا وشرفنا، ونحن لا
نسمح لأى إنسان أن يمس العقيدة والشرف منا.

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنه لم يسمع ما
قال الملك :

- إذا سألتنى مولاي : لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدا
لست ، فماذا أقول له؟

- قل له إن أهل الجنوب يعبدون آمون وحده .

- وإذا سألتنى ، لماذا لا يقتلون أفراس البحر التى تقض
مضجعى؟

- قل له إن أهل الجنوب يقدسونها .

- يا عجبا . . أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر؟

فأطرق سيكننرع مليا كأنه يفكر فى الجواب ، ثم قال بلهجة
حازمة :

- إن أبو فيس مقدس لديكم ، وهذه الأفراس مقدسة لدينا .

وسرت موجة ارتياح فى نفوس رجال الملك لهذا الجواب
العنيف ، أما خيان فقد اشتد به الغضب ولكنه لم يستسلم
لسلطانه ، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء :

- أيها الحاكم الجليل ، كان أبوك حاكما على الجنوب ولم يكن
يلبس هذا التاج ، فهل ترى لنفسك حقا غير ما كان يرى أبوك
لنفسه؟

- لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القدم، ومن حقى أن أتوج به رأسى .

- ولكن فى منف رجل آخر يتوج رأسه بتاج مصر المزدوج، ويسمى نفسه فرعون مصر، فماذا ترى فيما يدعيه لنفسه؟

- أرى أنه اغتصب وأسلافه المملكة .

ونفذ صبر خيان فقال بحنق واحتقار :

- أيها الحاكم، لا تظن أن لبسك التاج يرفعك إلى مصاف الملوك، فالملك من بعد ومن قبل قوة وسلطان، ولست أرى فى أقوالك إلا استهانة بالوشائج الطيبة التى ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا، ونزوعنا إلى التحدى لا تؤمن عواقبه .

فتبدى الغضب على وجوه الحاشية، ولكن الملك حافظ على هدوئه وقال مسترسلا :

- أيها الرسول نحن لا نعجل بالشر، ولكن إذا تحرش بشرفنا متحرش؛ لا ننكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة، ومن فضائلنا ألا نغالى فى تقدير قوتنا فلا تنتظر أن تسمع منى مباهاة وفخرا . ولكن أعلم أن آبائى وأجدادى حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال هذه المملكة . ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الرب والناس على المحافظة عليه .

فعلت شفتى خيان الحادثين ابتساما ساخرة تخفى حقدا مرا .
وقال بلهجة ذات مغزى :